٦٧ أبو العباس القلقشندى
صاحب موسوعة صبح الأعشى

للعرب المسلمين الأقدمين سبق فى كتابة الموسوعات على غيرهم من الأمم ذات الحضارات، قديمها وحديثها، وهذا النوع من الكتابات دليل على دورهم فى حركة التنوير بوجه عام.

ففى تاريخ الفكر الإسلامى لم يكد يمضى على الرسالة المحمدية قرن من الزمان حيت نشطت حركة التجميع لأطراف المعارف ومعها حركة واسعة للتقنين العلمى.. وكان ذلك ملحوظاً فى علوم اللغة والفقه، ثم نقل ثقافات الآخرين وتمثلها. حتى إذا جاء القرن العاشر وامتداده فى القرن الحادى عشر (الرابع الهجرى والخامس). حتى بلغ التنوير ذروته، فكانت رسائل إخوان الصفا بمثابة الموسوعة أو دائرة المعارف.. التى هى عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات، وكانت الفلسفة الإسلامية بما تتضمنه من جمع لأطراف المعارف وتأملها وتحليلها قد بلغت ذروتها عند الفارابى وابن سينا.. مما يشير إلى سلطان العقل وسيطرته ـ وقتئذ ـ على جمع المعارف.

وكان مع الفلسفة فى تلك الإشارات التنويرية إلى سلطان العقل حركة قوية فى النقد الأدبى، لأننا إذا قلنا «النقد الأدبى» للعرب الأقدمين فكأننا قلنا: إنه العقل بتحليلاته العلمية التى لم يكن الركون إلى مسألة (أحكام الذوق) فيها إلا بمثابة الحلية الصغيرة التى توضع على الثوب العريض. وحتى الشعر ذاته، فقد غلبت عليه هذه النظرة التى تطمح إلى تجميع المعارف والسيطرة عليها وتأملها وتحليلها وكأنها بذلك تريد أن تجمع الكون كله فى حبة رمل، فكانت نظرة الشعراء، وفى

مقدمتهم أبو العلاء المعرى تطل على الإنسان من أعلى لتسبر أغواره، وتكشف حقيقته.

وأبو العباس القلقشندى صاحب موسوعة صبح الأعشى الذى عاش ومات فى القرنين الثامن والتاسع (٧٥٦ ـ ٨٢١) للهجرة كان واحدًا من هؤلاء العرب المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة جليلة، هى الإسهام بنصيب فى بناء الثقافة العربية الإسلامية من خلال كتاباته المتعددة، وأبرزها موسوعته «صبح الأعشى»، التى لا يخلو عمل فكرى فى الثقافة الإسلامية إلا ويرجع إليها، متزودًا منها بالكثير من المعارف التى سبق غيره فى تجميعها والسيطرة عليها.

وبرغم أهمية القلقشندى وموسوعته وبقية كتبه، فإنه لا يحظى من الكتاب والمؤرخين بحظ كبير فى التأريخ له أو الكتابة عنه، سواء الأقدمين أو المحدثين.

فمن الأقدمين نجد هناك إشارات إلى تاريخ وفاته عام ٨٢١ هـ سجلها كل من المقريزى، وابن حجر، والعَيْنى، والسخاوى.. ولعل أوسع ترجمة كانت عن القلقشندى كتبها السخاوى فى كتابه «الضوء اللامع»، ومع هذا تستوعبها سطور قليلة قال فيها: «هو أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال الفزارى القلقشندى (إشارة إلى بلدة قلقشندة الموجودة الآن بالقليوبية)، ثم القاهرى (إشارة إلى عمله فى مدينة القاهرة) الشافعى (إشارة إلى انتسابه إلى المذهب الشافعى، والد النجم (إشارة إلى ابنه العالم الفقيه الذى اشتهر أمره فيما بعد..).

ويضيف السخاوى إلى هذه السطور التى توضح نسبه سطورًا أخرى: «ولد سنة ٧٥٦ هـ، واشتغل بالفقه وغيره، وسمع من ابن الشيخه.. وكتب فى الإنشاء، وناب فى الحكم، وبرع فى الأدب والفقه، وشرح قطعاً من جامع المختصرات، وكتب صبح الأعشى فى أربعة مجلدات (الثابت أنها سبعة ـ كما قرر المحققون من بعد، وفى مقدمتهم الأستاذ إبراهيم الأبيارى، والدكتور عبد اللطيف حمزة ـ وليست أربعة وهذا الكتاب (يقصد صبح الأعشى) جَمَعَ فيه فأوْعَى، وكان يستحضر أكثر ذلك من جامع المختصرات والحاوى، وكتاباً فى أنساب العرب... ومات يوم السبت العاشر من جمادى عام ٨٢١ هـ، وعمره خمسة وستون عاماً..

بعد أن برع فى العربية، وعرف الفرائض، وشارك فى الفقه، وسمع الحديث، ونظم الشعر، وكتب النثر..».

هكذا أرخ السخاوى بهذه الكلمات القليلة للقلقشندى، هذا العالم الجليل الذى خدم الأدب والعلم أجل الخدمات! وهكذا يشير إلى موسوعته (صبح الأعشى إشارة تدل دلالة صريحة على أنه لم يطلع عليها، ولم يقف على محتواها، وأكبر دليل على ذلك أنه أخطأ حتى فى عدد مجلداتها، فبينما هى فى الحقيقة سبعة كما يقرر المحقق الكبير إبراهيم الأبيارى فى تقدمته لتحقيق كتاب «نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى) وهو كتاب جليل النفع يأتى فى المرتبة الثانية بعد كتابه «صبح الأعشى» الذى اشتهر به، والموجود الآن بدار الكتب فى سبع مجلدات كاملة غير منقوصة.

ومراحل حياة القلقشندى يمكن تركيزها فى ثلاثة مراحل مهمة، وذلك من هذه الصفحات التى اهتمت به، سواء فيما كتبه الأستاذ الأبيارى فى مقدمته الضافية لكتاب «نهاية الأرب» أو ما سجلة الدكتور عبد اللطيف حمزة عن القلقشندى فى سلسلة أعلام العرب. والحق أن الأبيارى وحمزة قد أنصفا هذا الرجل أكثر مما أنصفه معاصروه، وفى مقدمتهم السخاوى، وابن حجر، والمقريزى، والعينى.. هذه المراحل الثلاثة هى:

* مرحلة النشأة والتعليم: حيث نشأ أبو العباس القلقشندى نشأة علمية سليمة، وتربى تربية إسلامية صحيحة فى بيت علم وفضل. إلى أن توجه إلى الإسكندرية طلباً للعلم، وأقام بها سنوات، وفيها التقى بمشاهير العلماء التى كانت الإسكندرية تغص بهم. وظل متلقياً للعلم والفقه والأدب والحديث والتفسير حتى أجازه شيخ الإسكندرية وقتئذ سراج الدين بن أبى الحسن، المشهور (بابن الملقّن).. بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى، كما أجاز له (ابن الملقّن) الرواية على الكتب (الصحاح الستة، ومسند الشافعى، ومسند أحمد بن حنبل وغيرها من الكتب التى هى أصول الفقه الإسلامى، ولا يجوز لعالم أن يقوم بالفتوى إلا إذا كان قد درسها وهضمها وتمثّلها.

* أما المرحلة الثانية من مراحل حياة القلقشندى فهى مرحلة التفقه والتدريس والتأليف. حيث عمل بالتدريس، وانتفع به الكثيرون، وتفقه فى العقيدة والدين، وكان فى ذلك من أهل الاجتهاد، حيث حاول أن يضع لعلم الفقه أصولا وقواعد. وقد أنتج فى هذه المرحلة الثانية من حياته كتباً فى الفقه، أهمها «شرح لجامع المختصرات فى فروع الشافعية»، و«شَرْح الحاوى الصغير فى الفروع» للقزوينى، وكتباً أخرى فى الأدب، أهمها «حلية الفضل والكرم فى المفاضلة بين السيف والقلم»، و«شَرْحَ قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير» وغيرها، حتى استطاع القلقشندى أن يستفيد من هذه المرحلة ويفيد، ويعد هذه المرحلة امتداداً لمرحلة النشأة التعليمية، وبداية للمرحلة التالية التى تركت أجل الأعمال للثقافة الإسلامية.

* وهذه المرحلة هى الثالثة، وهى مرحلة تولى كتابة الإنشاء فى الديوان، حيث اختاره السلطان لذلك، فأسفر عن ذكاء ملحوظ، وقريحة فذة أنتجت طائفة من الكتب، منها كتاب أو موسوعة «صبح الأعشى»، الذى استغرق فى وضعه مايقرب من العشرين عاماً، وكتب أخرى فى العلم بأنساب العرب، وأهمها كتاب «نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب» الذى وضعه بعد موسوعة «صبح الأعشى» كما يقرر المحققون المحدثون. وقد اشتملت مقدمة كتاب «نهاية الأرب» على خمسة فصول، هى بحق خير زاد لمن يريد التعرف على أنساب العرب وقبائلهم المتعددة واشتملت خاتمته على خمسة فصول أخرى اهتمت بديانات العرب قبل الإسلام ومفاخراتهم، والحروب الواقعة بينهم وأسواقهم وعاداتهم وتقاليدهم.

غير أن مجلدات أو موسوعة «صبح الأعشى» أهم بكثير من كتاب «نهاية الأَرَب»، بل دَأَبَ المؤرخون المحدثون على القول بأنه لولا (الصبح) لما ظهر كتاب (النهاية) وقد صرحْ القلقشندى نفسه بأنه إنما وضع كتابه «نهاية الأرب» لا لشئ إلا لأن كتابة الإنشاء فى الديوان الذى اختير للعمل فيه استلزمت العلم بقبائل العرب وأنسابهم.

ولعل القلقشندى نفسه كان يدرك قيمة هذا الكتاب، فقد رغب تعميم الفائدة منه وتقريبها إلى عدد أكبر من القراء، فاختصر هذه الموسوعة الضخمة المسماه

«صبح الأعشى» إلى مختصر أطلق عليه «ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر» تحسباً منه بأن من القراء من لا يقوى على قراءة هذه الموسوعة الضخمة، ولا يصبر على هذه القراءة. ومَنْ أراد واستطاع فعليه بمجلدات الموسوعة. وهكذا رأى القلقشندى مبكرًا أن يعمل العالم أو المؤلف حسابه لهاتين الطائفتين من القراء فى وقت واحد.

وكما يقرر مؤرخو القلقشندى ومحققوه أن كتاب «صبح الأعشى» هو أهم وأخطر كتب القلقشندى على الإطلاق. وهو الكتاب الذى يُعْرَف به عبر العصور، ويشتهر به ويذكر بين المؤلفين، فلا يمر اسم القلقشندى فى مجال من مجالات الفقه أو العلم أو الأدب إلا يطرأ على الذهن أنه مؤلف «صبح الأعشى» وكفى. والنادر من القراء الذين يعرفونه بأنه مؤلف نهاية الأرب، أو قلائد الجمان، أو شارح مُسْنَد الشافعى، أو ابن حنبل. بل إن معرفته ترتبط بتأليفه هذه الموسوعة الضخمة «صبح الأعشى».

ويذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة إشارة إلى قيمة هذا الكتاب فيقول: «..وفى أوائل القرن العشرين طالعتنا دار الكتب المصرية بأول جزء من هذا الكتاب الكبير، أو الموسوعة العظيمة، فهال الناس جميعاً ما اشتمل عليه هذا الجزء من العلم والفائدة، وشجع ذلك دار الكتب على المضى فى نشره بالطرق العلمية السليمة..».

وهكذا استطاعت دار الكتب المصرية بهذا الصنيع أن تسدى للثقافة العربية الإسلامية جليلَ الخدمات عن طريق نشرها لهذه الموسوعة العلمية الأدبية للقلقشندى.

إن هذا العَلَمَ من أعلام الفكر الإسلامى لا يحظى من أبناء وطنه بالاهتمام الجدير به، اللهم إلا ما قامت به جامعة بنها فى عام ١٩٨٥ من عقد ندوة علمية حوله كواحد من أعلام محافظة القليوبية، والتى فيها رفاته، ومسجده هناك فى بلدته قلقشندة التى انتسب إليها.

* * *